مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة السَّادِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

شَرْح الْأَرْبَعِين النَّوَوِيَّة

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَتِمَّةُ الْحَدِيثِ الثَّانِي وَالْأَرْبَعُونَ

«يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ»، هَذَا هُوَ السَّبَبُ الثَّانِي مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ.

الِاسْتِغْفَارُ، مَا مَعْنَاهُ؟

مَعْنَىٰ الِاسْتِغْفَارِ طَلَبُ الْمَغْفِرَةِ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلطَّلَبِ.

الْمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذَّنْبِ مَعَ التَّجَاوُزِ عَنْهُ.

سَتْرُ الذَّنْبِ حَتَّىٰ لَا يَطَّلِعَ عَلَيْكَ الْعِبَادُ فَتُفْتَضَحَ؛ لِهَذَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَخْلُو اللهُ تَعَالَىٰ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: **«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»**.

لَمَّا مَرَّ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ- عَلَىٰ هَذَا الْحَدِيثِ وَقَفَ عِنْدَهُ مُتَأَمِّلًا، وَكَانَ -غَفَرَ اللهُ لَهُ- فِي الْوَعْظِ لَا يُشَقُّ لَهُ غُبَارٌ، فَكَانَ دَائِمًا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَعَانِي، لَمَّا مَرَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُقَرِّبُ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُلْقِي عَلَيْهِ كَنَفَهُ، أَوْ يُدْخِلَهُ فِي كَنَفِهِ، ثُمَّ يُقَرِّرُهُ: تَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، تَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، تَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، حَتَّىٰ إِذَا أَيْقَنَ بِالْهَلَاكِ، قَالَ: **«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي**

الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»(١).

نَظَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَمْرٍ عَجِيبٍ فَقَالَ -وَهُوَ قَوْلُهُ هُوَ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُنَجِّيَنَا جَمِيعًا مِنَ النَّارِ- قَالَ: إِنَّ مَا يَكُونُ مِنْ حَيَائِهِ مِنْ رَبِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يُقَرِّرُهُ بِذَنْبِهِ، يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ لَوْ أَنَّهُ أُمِرَ بِهِ إِلَىٰ النَّارِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعْفُوَ عَنَّا جَمِيعًا، وَأَنْ يَسْتُرَنَا.

وَلَكِنْ نَظَرَ إِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ؛ أَنْ يَسْتَحْيِيَ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ.

فَأَنْتَ يُقَرِّرُكَ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَعَلْتَ كَذَا، تَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، تَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، كَيْفَ يَكُونُ حَالُكَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَأَنْتَ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذْكُرُهُ، أَيْ رَبِّ أَذْكُرُهُ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا أَجْمَعِينَ.

«قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ».

مِنْ أَعْظَمِ الْمُنْكَرَاتِ: أَنْ يُخْبِرَ الْعَبْدُ بِذُنُوبِهِ النَّاسَ، وَيُطْلِعُهُمْ عَلَيْهَا، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًىٰ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا. وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ،**

---

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٢٤٤١) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٦٠٦٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٩٩٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَليه».

هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، يَبِيتُ بِاللَّيْلِ يَعْمَلُ الذَّنْبَ، وَاللهُ ﷻ بِسِتْرِهِ وَحِلْمِهِ يَسْتُرُهُ وَلَا يَفْضَحُهُ، فَإِذَا أَصْبَحَ هَذَا الْعَبْدُ الْمُذْنِبُ فَضَحَ نَفْسَهُ، يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، كَمَا هُوَ شَأْنُ أَكْثَرِ الْفَاجِرِينَ، بَلْ هُوَ شَأْنُ الْفَاجِرِينَ أَجْمَعِينَ، فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَبَاهَىٰ بِالذُّنُوبِ فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ، يَبِيتُ يَسْتُرُهُ اللهُ، فَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَلَيْهِ.

فَالْمَغْفِرَةُ سَتْرُ الذَّنْبِ.

شَيْءٌ آخَرُ؛ أَنَّهُ رُبَّمَا سَتَرَ عَلَيْكَ الذَّنْبَ، ثُمَّ أَخَذَكَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَعَاقَبَكَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الْمَغْفِرَةُ فَسَتْرُ الذَّنْبِ مَعَ التَّجَاوُزِ عَنْهُ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا أَجْمَعِينَ.

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ مُلَازِمًا لِلِاسْتِغْفَارِ، فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»(١) عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**».

وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ(٢) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَاللهِ، إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**».

---

(١) (٢٧٠٢).

(٢) في «صحيحه» (٦٣٠٧).

www.menhag-un.com

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ(١) وَصَحَّحَهُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ.

هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَلَا أَحَدٌ هُوَ أَعْلَىٰ مِنْهُ عِنْدَ اللهِ مَقَامًا، وَمَعَ ذَلِكَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ يَقُولُ مِئَةَ مَرَّةٍ وَالصَّحَابَةُ يَعُدُّونَ، لَيْسَ ذَلِكَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّكْرَارِ، إِنَّمَا كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ؟!

نَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُفَهِّمَنَا حَقِيقَةَ الدِّينِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا حَلَاوَةَ الْيَقِينِ.

وَاللهُ ﷻ قَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي أَكْثَرَ مِنْ آيَةٍ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٦]، فَأَمَرَهُ رَبُّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وَالِاسْتِغْفَارُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ.

فَالْمُطْلَقُ؛ يَكُونُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَوِّدْ

---

(١) أخرجه أَبُو دَاوُدَ (١٥١٦)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٤٣٤)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (١٣٥٧).

لِسَانَكَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّ لِلَّهِ سَاعَاتٍ لَا يَرُدُّ فِيهَا سَائِلًا.

وَقَدْ مَرَّ هَذَا الْمَعْنَىٰ مِنْ قَوْلِ بَعْضِ الصَّالِحِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ -وَهُوَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ-: اذْكُرُوا اللهَ فِي بُيُوتِكُمْ، وَفِي طُرُقَاتِكُمْ، فِي أَسْوَاقِكُمْ، فِي فُرُشِكُمْ... إِلَىٰ آخِرِ مَا قَالَ.

وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَىٰ الَّذِي قَالَهُ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَوِّدْ لِسَانَكَ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»؛ فَإِنَّ لِلَّهِ سَاعَاتٍ لَا يَرُدُّ فِيهَا سَائِلًا، فَعَسَىٰ أَنْ تُوَافِقَ مِنْ تِلْكَ السَّاعَاتِ سَاعَةً.

وَقَالَ الْحَسَنُ: أَكْثِرُوا مِنَ الِاسْتِغْفَارِ فِي بُيُوتِكُمْ، وَعَلَىٰ مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ، أَيْنَمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَىٰ تَنْزِلُ الْمَغْفِرَةُ.

فَهَذَا هُوَ الِاسْتِغْفَارُ الْمُطْلَقُ أَنْ يُعَوِّدَ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وَهِيَ صِيغَةُ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ ﷺ كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الْمُقَيَّدُ؛ فَيَكُونُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، فَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(١) بِسَنَدِهِ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا».

---

(١) (٥٩١).

وَكَذَلِكَ بَعْدَ وُقُوعِ الْعَبْدِ فِي الذَّنْبِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وَقَالَ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ إِذَا حَدَّثَنِي أَحَدٌ اسْتَحْلَفْتُهُ، يَعْنِي إِذَا قَالَ لِي: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِنْ حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ؛ فَحَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ؛ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ**»(١).

الِاسْتِغْفَارُ أَيْضًا يَكُونُ بِعَقِبِ الْخُرُوجِ مِنَ الْخَلَاءِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلَاءِ قَالَ: «**غُفْرَانَكَ**»(٢).

وَكَذَلِكَ بَعْدَ التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ، فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٣) وَغَيْرِهِمَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ

---

(١) أخرجه أَبُو دَاوُدَ (١٥٢١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤٠٦)، وَابْنُ مَاجَه (١٣٩٥)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (١٣٦١).

(٢) أخرجه أَبُو دَاوُدَ (٣٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٧) وَقَالَ: «حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «إرواء الغليل» (٥٢).

(٣) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٨٣٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٠٥).

قُلْ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ(١) عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه مُطَوَّلًا -يَعْنِي هَذَا الْحَدِيثَ- وَفِيهِ: ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».

كَذَلِكَ يَأْتِي بِالِاسْتِغْفَارِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَعَنْ عَائِشَةَ كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) قَالَتْ رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**».

وَكَذَلِكَ فِي الْجُلُوسِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي وَارْفَعْنِي وَارْزُقْنِي وَاهْدِنِي**»(٣)، وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ(٤): **وَعَافِنِي**.

رَبِّ اغْفِرْ لِي رَبِّ اغْفِرْ لِي.

---

(١) في «صحيحه» (٧٧١).

(٢) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٧٩٤)، وَمُسْلِمٌ (٤٨٤).

(٣) أخرجه أَحْمَدُ في «مسنده» (١/ ٣٧١)، وصححه الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِلْسِلَةِ الضَّعِيفَةِ» (١١/ ٧٥٦)، و«صفة الصلاة» (٣/ ٨٠٩، ٨١٠).

(٤) (٨٥٠).

وَعِنْدَ ضِيقِ الصَّدْرِ وَتَعَسُّرِ الْأُمُورِ: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَسِبَ»(١). وَهَذَا إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لَكِنَّ الْمَعْنَىٰ صَحِيحٌ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَقَالَ لَهُ: أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي. فَقَالَ: أَلِنْهُ بِذِكْرِ اللهِ وَكَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ.

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ أَخَذَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: إِنَّ فِي الْقُلُوبِ قَسَاوَةً لَا يُذِيبُهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ ﷻ.

لَوْ آتَاكَ اللهُ ﷻ بَصِيرَةً لَعَلَّمَكَ فِي أَقْوَالِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ، هَلْ هُمْ مِنْ أَهْلِ الِاسْتِغْفَارِ وَالذِّكْرِ أَمْ أَنَّهُمْ بِمَبْعَدَةٍ عَنْ هَذَا، هَذَا يَبْدُو لَائِحًا بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، وَفِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

كَذَلِكَ يَأْتِي الْمَرْءُ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي الْأَسْحَارِ: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَنَا -كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

---

(١) أخرجه أَبُو دَاوُدَ (١٥١٨)، وَابْنُ مَاجَه (٣٨١٩)، وَضَعَّفَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السلسلة الضَّعِيفَةِ» (٧٠٥).

(٢) أخرجه الْبُخَارِيُّ (١١٤٥)، وَمُسْلِمٌ (٧٥٨).

أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَنْزِلُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ، هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ، حَتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ.

*** وَأَمَّا أَلْفَاظُ الِاسْتِغْفَارِ فَالْوَارِدُ مِنْهَا كَثِيرٌ:**

أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ؛ وَسَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّيَغِ الَّتِي وَرَدَتْ وَفِيهَا فَضْلٌ عَظِيمٌ.

فَسَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ قَالَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَتَىٰ بِهِ مِنْ يَوْمِهِ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، إِذَا قَالَهُ مِنْ لَيْلَتِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

«**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ....**» وَهُوَ حَدِيثُ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»(١).

وَأَمَّا صِيغَةُ «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ**».

فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي فَضْلِهَا: «**مَنْ قَالَهَا غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»(٢)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ إِنَّمَا يَكُونُ بِاقْتِدَاءِ أَثَرِ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ.

---

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٦٣٢٣) مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه التِّرْمِذِيُّ (٣٣٩٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه، وَضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «ضَعِيفِ الجامع» (٥٧٢٨).

فَالْإِنْسَانُ يُمْكِنُ أَنْ يَأْتِيَ بِصِيَغٍ كَثِيرَةٍ يَأْتِي بِهَا مِنْ كِيسِهِ، يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ الْمَأْثُورَ أَفْضَلُ، وَأَنَّ لَفْظَ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ الْأَوْلَىٰ بِالْأَخْذِ بِهِ.

وَأَمَّا فَوَائِدُ الِاسْتِغْفَارِ فَقَدْ قَالَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

فَمِنْ فَوَائِدِهِ كَمَا دَلَّتِ الْآيَاتُ الْعَظِيمَاتُ: مَغْفِرَةُ الذُّنُوبِ وَالْأَوْزَارِ، حُصُولُ الْخَيْرَاتِ، وَنُزُولُ الْبَرَكَاتِ، وَتَكْثِيرُ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ.

بَلْ إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الِاسْتِغْفَارِ نَاظِرًا إِلَىٰ مَعْنَىٰ الْآيَةِ زَوَّجَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، وَالْبَنِينُ لَا يَأْتُونَ إِلَّا مِنْ زَوَاجٍ؛ فَإِذَا اجْتَهَدَ الْإِنْسَانُ فِي الِاسْتِغْفَارِ؛ زَوَّجَهُ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

فَعَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي هَذَا، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ مَعَ إِصْرَارِ الْقَلْبِ عَلَىٰ الذَّنْبِ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ؛ وَإِنَّمَا هُوَ دُعَاءٌ مُجَرَّدٌ إِنْ شَاءَ اللهُ أَجَابَهُ وَإِنْ شَاءَ رَدَّهُ.

وَأَمَّا الِاسْتِغْفَارُ الْمُثْمِرُ هُوَ الَّذِي يُوَاطِئُ الْقَلْبُ فِيهِ اللِّسَانَ، فَيَحْصُلُ مَعَهُ النَّدَمُ عَلَىٰ مَا فَاتَ، وَالْعَزْمُ عَلَىٰ أَلَّا يَعُودَ لِلْمَعَاصِي وَالْآثَامِ.

وَذَكَرَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَذَا الْحَدِيثِ التَّوْحِيدَ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْفَوْزِ بِدَارِ

الْقَرَارِ وَلِلنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا لَمْ يَتُبْ، ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

فَبَعْضُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي الْأَمْرِ نَظْرَةً لَا تَتَعَمَّقُ يَقُولُ: هَا هُنَا تَنَاقُضٌ!! أَيْنَ؟!!

يَقُولُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، فَيَدْخُلُ الشِّرْكُ، وَهُنَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ فَأَخْرَجَ الشِّرْكَ؟

فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ، وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ كُفْرًا، وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ شِرْكًا.

بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ قَدِ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَحَارَبَ الصَّحَابَةَ كَطُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنه، فَإِنَّهُ تَنَبَّأَ، وَأَتَىٰ بِبَنِي أَسَدٍ لِيَغْزُوَ مَدِينَةَ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَأَطَرَهُ الصَّحَابَةُ وَمَنْ مَعَهُمْ؛ فَأَعْجَزَهُمْ هَرَبًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ رضي الله عنه.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَبَيَّنَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمه الله -فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ

لَهُ-: هَلْ إِذَا ارْتَدَّ الْمَرْءُ -عِيَاذًا بِاللهِ، وَلِيَاذًا بِجَنَابِهِ الرَّحِيمِ- وَكَانَ ذَا عَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ هَلْ يَعُودُ إِلَيْهِ ثَوَابُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الرِّدَّةِ إِذَا مَا عَادَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، أَوْ لَا يَعُودُ؟

وَالَّذِي اخْتَارَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ -وَعَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ- أَنَّهُ يَعُودُ، وَقَدْ أَبْلَىٰ طُلَيْحَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَلَاءً حَسَنًا فِي الْقَادِسِيَّةِ، بَلْ جَعَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَبَبًا لِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا، كَانَ فَارِسًا مِغْوَارًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَالتَّوْحِيدُ لَابُدَّ مِنْهُ، وَكُلُّ ذَنْبٍ أَتَىٰ الْعَبْدُ بِهِ وَلَوْ كَانَ مُصَادَمَةَ التَّوْحِيدِ فِي أَصْلِهِ لَا فِي كَمَالِهِ، فَالَّذِي يُصَادِمُ التَّوْحِيدَ فِي أَصْلِهِ هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ، وَأَمَّا فِي كَمَالِهِ فَهُوَ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، حَتَّىٰ لَوْ كَفَرَ الْمَرْءُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ إِذَا أَتَىٰ بِالتَّوْبَةِ عَلَىٰ شُرُوطِهَا، فَحِينَئِذٍ تَأْتِي الْآيَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ هَذَا فِي حَقِّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، مَنْ لَقِيَ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ الشِّرْكِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ شِرْكَهُ، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ دُونَ الشِّرْكِ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

فَمَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ وَإِنْ أَتَىٰ مِنَ الذُّنُوبِ مَا أَتَىٰ فَهُوَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، شَرِيطَةَ أَنْ يَخْرُجَ عَلَىٰ أَصْلِ التَّوْحِيدِ -أَنْ يَخْرُجَ عَلَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»-، فَهُوَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ؛ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ هَذَا فِي حَقِّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا.

وَأَمَّا مَنْ أَشْرَكَ ثُمَّ تَابَ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وَلَوْ كَانَ الذَّنْبُ كُفْرًا وَشِرْكًا أَكْبَرَ.

وَلَكِنْ مَنْ لَقِيَ رَبَّهُ بِالشِّرْكِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَهُ ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا تَمَامَ التَّوْحِيدِ، وَكَمَالَ التَّوْحِيدِ، وَحَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ، وَالثَّبَاتَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالْمَوْتَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ الْمُوَحِّدِينَ، وَتَحْتَ رَايَةِ سَيِّدِ الْمُوَحِّدِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

مَنْ حَقَّقَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بِقَلْبِهِ أَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِهِ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللهِ مَحَبَّةً، وَتَعْظِيمًا، وَإِجْلَالًا، وَمَهَابَةً، وَخَشْيَةً، وَرَجَاءً، وَتَوَكُّلًا، فَحِينَئِذٍ تُحْرَقُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ كُلُّهَا، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَرُبَّمَا قَلَبَتْهَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ حَسَنَاتٍ.

فَضَائِلُ التَّوْحِيدِ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ، بَلْ كُلُّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ فَسَبَبُهُ التَّوْحِيدُ، فَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ، كَمَا بَيَّنَ لَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ، لَوْ أَنَّ الْعَبْدَ لَقِيَ رَبَّهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا؛ فَلَقِيَ اللهَ ﷻ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا لَقِيَهُ مُوَحِّدًا؛ آتَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِقُرَابِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً.

يَقُولُ اللهُ ﷻ كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ(١) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ: «**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ**

(١) في «صحيحه» (٢٦٨٧).

أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

فَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ، وَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ السَّبَبُ الْأَعْظَمُ لِتَفْرِيجِ كُرُبَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَدَفْعِ عُقُوبَتِهِمَا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَغْفِرُ لِلْمُخْلِصِينَ الذُّنُوبَ، وَيُعَافِيهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمُ الْكُرُبَاتِ مَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ غَيْرِهِمْ، كَمَا فِي حَدِيثِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَىٰ الْغَارِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ، فَتَوَسَّلُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِخَالِصِ أَعْمَالِهِمْ؛ فَفَرَّجَ اللهُ عَنْهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ. وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١).

وَمِنْ أَجْلِ فَوَائِدِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ يَمْنَعُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ إِذَا كَانَ فِي الْقَلْبِ مِنْهُ أَدْنَىٰ مِثْقَالٍ، وَلَوْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُحَرِّمُ عَلَىٰ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ مِنْ تَوْحِيدٍ أَنْ يَخْلُدَ فِي النَّارِ، وَأَمَّا إِذَا كَمُلَ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُ دُخُولَ النَّارِ بِالْكُلِّيَّةِ.

فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةُ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ**

---

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٢٢١٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٦٥٦٠)، وَمُسْلِمٌ (١٨٣).

الْحَيَا أَوِ الْحَيَاة -شَكَّ مَالِكٌ- **فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَوْ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»**.

«**مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ**» الْمِثْقَالُ الْوَزْنُ، وَالْخَرْدَلُ نَبَاتٌ صَغِيرُ الْحَبِّ يُشَبَّهُ بِهِ الشَّيْءُ الْبَالِغُ الْقِلَّةِ.

وَأَمَّا «**نَهْرُ الْحَيَا**» فَالْحَيَا الْمَطَرُ لِأَنَّهُ تَحْصُلُ بِهِ الْحَيَاةُ، وَ«**نَهْرُ الْحَيَاةِ**» هُوَ الَّذِي يَحْيَا مَنِ انْغَمَسَ فِيهِ، «**فَيَنْبُتُونَ**» أَيْ فَيَخْرُجُونَ، «**الْحِبَّةُ**» بِذْرَةُ النَّبَاتِ مِنَ الْبُقُولِ وَالرَّيَاحِينِ، «**تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً**» مُنْثَنِيَةً تَسُرُّ النَّاظِرِينَ، بِمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ بِوُجُوهٍ نَضِرَةٍ مَسْرُورِينَ مُتَبَخْتِرِينَ.

وَفِي حَدِيثِ عِتْبَانَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**».

وَفِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»، الْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ(٢).

فَاللهُ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَتَىٰ بِكُلِّ ذَنْبٍ سِوَىٰ الشِّرْكِ ثُمَّ لَقِيَ اللهَ

---

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٤٢٥)، وَمُسْلِمٌ (٣٣).

(٢) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٣٤٣٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٨).

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُوَحِّدًا؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَغْفِرُ لَهُ مَا كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَلَا يُبَالِي.

يَقُولُ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: «**يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا**»، وَقُرَابُهَا مَا يُقَارِبُ مِلْأَهَا، «**ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**» وَهُوَ الْحَدِيثُ الْأَخِيرُ فِي مَجْمُوعِ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْأَرْبَعِينَ وَهُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي مَعَنَا.

فَالتَّوْحِيدُ يُحَصِّلُ لِصَاحِبِهِ الْهُدَىٰ الْكَامِلِ وَالْأَمْنَ التَّامَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالتَّوْحِيدُ هُوَ السَّبَبُ الْوَحِيدُ لِنَيْلِ رِضَا اللهِ وَثَوَابِهِ، وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ؛ فَلَابُدَّ مِنَ التَّوْحِيدِ.

وَأَيُّ سَبَبٍ يَكُونُ فِيهِ رِضْوَانُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَإِنَّهُ لَا يُعْتَدُّ بِهِ حَتَّىٰ يُؤَسَّسَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا أَتَىٰ بِهِ مِنْ طَاعَةٍ لَا تَكُونُ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ التَّوْحِيدِ، فَهَذِهِ لَا تُقْبَلُ.

أَيُّ عَمَلٍ صَالِحٍ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ مُؤَسَّسًا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ وَفِي غَيْرِهَا، وَضَرَبَ لِذَلِكَ مِثَالًا مَعَ الْفَارِقِ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِالطَّهَارَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ.

فَمَهْمَا أَتَىٰ الْإِنْسَانُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَمَلُ مُؤَسَّسًا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَإِلَّا لَمْ يَقْبَلْهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

إِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ إِلَىٰ قَوْلِ الْفُضَيْلِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَذْكُرُ لَنَا أَنَّ الْعَمَلَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا، وَأَنْ يَكُونَ صَوَابًا.

فَالْإِنْسَانُ لَابُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بِالْعَمَلِ وَقَدْ تَوَفَّرَ فِيهِ شَرْطَانِ: الْإِخْلَاصُ، وَالْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

فَقَالَ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَىٰ الْحَدِيثِ؛ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**». الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»(١).

أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ.

الْإِخْلَاصُ شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَالصِّدْقُ فِيهَا كَذَلِكَ، وَالْعِلْمُ بِمَعْنَاهَا كَذَلِكَ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُرُوطِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

لَا يُمْكِنُ لِلْعَبْدِ أَنْ يُحِسَّ بِجَلَالِ الْحَيَاةِ وَلَا بِقِيمَةِ الْوُجُودِ إِذَا كَانَ مُخَلِّطًا، وَإِذَا كَانَ قَلْبُهُ عَلَىٰ الشِّرْكِ مُنْطَوِيًا، فَإِنَّ هَذَا لَا يُؤَمِّلُ الْفَلَاحَ لَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةً، وَلَا

(١) (٩٩).

يُحِسُّ بِلَذَّةٍ لِهَذَا الْوُجُودِ بَلْ يُحِسُّ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ عَبَثٌ ضَائِعٌ، وَلَهْوٌ مَائِعٌ، وَأَنَّهُ لَا غَايَةَ مِنْ وُجُودِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

وَأَمَّا إِذَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ فَقَدْ عَرَفَ الْغَايَةَ، وَاسْتَقَامَتِ الْأَقْدَامُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ، وَاسْتَبَانَ الْمَنْهَجُ، وَاتَّضَحَتِ الْوَسِيلَةُ إِلَىٰ الْغَايَةِ بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ الْأَمْرُ عَلَىٰ عَبْدٍ مُوَحِّدٍ أَبَدًا.

فَاللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

مِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مُتَوَقِّفَةٌ فِي قَبُولِهَا وَكَمَالِهَا، وَفِي تَرْتِيبِ الثَّوَابِ عَلَيْهَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ كَمُلَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ وَتَمَّتْ.

وَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ: أَنَّهُ السَّبَبُ الْوَحِيدُ لِنَيْلِ رِضْوَانِ اللهِ وَثَوَابِهِ، وَأَنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَأَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

فَقَالَ ﷺ: «**مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**» وَفِي رِوَايَةٍ: «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ -أَوْ نَفْسِهِ-**».

---

(١) في «صحيحه» (٦٥٧٠).

مِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ يُسَهِّلُ عَلَىٰ الْعَبْدِ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَيُسَلِّيهِ عَنِ الْمُصِيبَاتِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَانَ مُوَحِّدًا وَعَلَىٰ رَبِّهِ مُقْبِلًا، وَكَانَ قَلْبُهُ لِلَّهِ خَالِصًا وَمُخْلِصًا، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدْ قَرَّبَهُ وَاصْطَفَاهُ، فَحِينَئِذٍ تَقَعُ الْأُمُورُ عَلَىٰ وَجْهِهَا فِي دُنْيَا اللهِ فَيُسَلِّيهِ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَيَلْهَجُ بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي حَقِّ الْمُهْتَدِينَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعَمِهِ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً أَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا مَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ فَاللَّامُ هَاهُنَا لِلْمِلْكِ وَالِاخْتِصَاصِ أَيْضًا، «إِنَّا لِلَّهِ» مِلْكٌ لِلَّهِ، وَمَنْ حَكَمَ فِيمَا لَهُ فَمَا ظَلَمَ، «إِنَّا لِلَّهِ» بِالْمِلْكِ وَالتَّصَرُّفِ، «إِنَّا لِلَّهِ» يَتَصَرَّفُ فِينَا رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- كَيْفَمَا يَشَاءُ، وَحَسْبَمَا يُرِيدُ، وَلَا يَأْتِي شَيْءٌ مِنْهُ إِلَّا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَلَيْسَ لِلْمُلُوكِ إِرَادَةٌ مَعَ الْمَالِكِ الْعَظِيمِ، فَحِينَئِذٍ يَحْدُثُ التَّسْلِيمُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُوَحِّدِينَ.

وَكَمَا فِيمَا وَرَدَ أَنَّ وَاحِدَةً مِنَ الصَّالِحَاتِ لَمَّا جُرِحَتْ أُصْبُعُهَا ضَحِكَتْ؛ فَقِيلَ لَهَا: هَذَا جُرْحٌ بَلِيغٌ، فَكَيْفَ تَضْحَكِينَ؟ فَقَالَتْ: إِنَّ حَلَاوَةَ أَجْرِهَا قَدْ أَنْسَتْنِي مَرَارَةَ أَلَمِهَا.

فَنَظَرَتْ إِلَىٰ الْمَآلِ وَلَمْ تَتَوَقَّفْ عِنْدَ حُدُودِ الْحَالِ، لَمْ تَكُنْ مَسْجُونَةً فِي رَأْيٍ خَائِبٍ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ، وَإِنَّمَا الطَّرِيقُ الصَّحِيحُ وَاضِحٌ مُعَبَّدٌ مُسْتَقِيمٌ، وَالْغَايَةُ لَائِحَةٌ ظَاهِرَةٌ لَا تَشْتَبِهُ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ يَحْيَا وَيَمُوتُ عَلَىٰ قَوْلِ «لَا إِلَهَ

إِلَّا اللهُ» خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ.

وَالْمُخْلِصُ لِلَّهِ فِي إِيمَانِهِ وَتَوْحِيدِهِ تَخِفُّ عَلَيْهِ الطَّاعَاتُ كَمَا كَانَ سَيِّدُ الْعَابِدِينَ ﷺ يَقُولُ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»، أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»(١).

وَقَالَ بِلَالٌ رضي الله عنه كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ -يَعْنِي عِنْدَ إِرَادَةِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ-: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» مِنْ حَدِيثِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»(٢)؛ كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَزِعَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ كَمَا أَخْرَجَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(٣) مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فَيَجِدُ فِي الصَّلَاةِ رَاحَةَ قَلْبِهِ وَسُكُونَ نَفْسِهِ وَارْتِيَاحَ ضَمِيرِهِ ﷺ.

وَهَلْ مِنْ شَيْءٍ يُوصِلُ إِلَىٰ رَاحَةِ الْقَلْبِ، وَاسْتِقْرَارِ الضَّمِيرِ، وَسَلَامَةِ الْبَالِ، وَصِحَّةِ الْحَالِ أَعْظَمُ مِنَ الِانْطِرَاحِ عَلَىٰ عَتَبَاتِ الرَّجَاءِ؟!!

يَرْجُو الْعَبْدُ رَبَّهُ مُقِيمًا بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُ: لَا أَرِيمُ حَتَّىٰ تَغْفِرَ لِي، وَأَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ.

---

(١) أخرجه النَّسَائِيُّ (٣٩٤٠)، وأَحْمَدُ فِي «مسنده» (٣/ ٢٨٥)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣١٢٤).

(٢) أخرجه أَبُو دَاوُدَ (٤٩٨٥)، وأَحْمَدُ فِي «مسنده» (٥/ ٣٦٤)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٦/ ٢٧٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» (٧٨٩٠).

(٣) (٢٧٣٠).

تَعُودُ إِلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِيُصْلِحَكَ، فَتَعُودُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ صَنْعَتُهُ وَقَدْ أَصَابَهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا أَصَابَهَا، وَلَا يَمْلِكُ إِصْلَاحَهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ.

يَرْجُو الْعَابِدُ ثَوَابَ رَبِّهِ وَرِضْوَانَهُ، وَيَهُونُ عَلَيْهِ ذَلِكَ حِينَئِذٍ إِذَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ فَكَانَ مُوَحِّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ حَقًّا وَصِدْقًا، تَرَكَ مَا تَهْوَاهُ النَّفْسُ مِنَ الْمَعَاصِي لِمَا يَخْشَىٰ مِنْ سَخَطِ اللهِ وَعِقَابِهِ، بَلْ لَمْ يَخْشَ مِنْ سُقُوطِهِ مِنْ عَيْنِ اللهِ، هَذَا أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ؛ يَخْشَىٰ أَنْ يَسْقُطَ مِنْ عَيْنِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، لِأَنَّهُ إِنِ اجْتَرَأَ عَلَىٰ مَعَاصِي اللهِ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُسْقِطَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عَيْنِهِ، فَلَا يَصِيرُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ ذَا قَدْرٍ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ**»(١).

لَا تَدْرِي لِأَنَّهُ لَعَلَّ اللهَ ﷻ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَىٰ الْعَبْدِ وَهُوَ عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ، لَعَلَّهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ وَهُوَ كَذَلِكَ فَيَمْقُتَهُ فَيَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ، فَيَكْتُبَ عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ؛ فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ**».

---

(١) أخرجه التِّرْمِذِيُّ (٢٣١٩)، وَابْنُ مَاجَه (٣٩٦٩) من حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٨٨).

«وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُ اللهُ الْعَبْدَ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»(١) فِي كَلِمَةٍ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، وَفِي رِوَايَةٍ: «يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ»؛ فَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِ اللهِ؛ هَذَا أَمْرٌ يَنْبَغِي أَنْ يُرَاعَىٰ.

عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ حَاجِزٌ عَظِيمٌ عَنْ مُوَاقَعَةِ الذُّنُوبِ وَاقْتِرَافِ الْآثَامِ، وَهُوَ خَشْيَةُ الْعَبْدِ أَنْ يَسْقُطَ مِنْ عَيْنِ اللهِ أَنْ يَرَاكَ مُقِيمًا عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ، فَحِينَئِذٍ يُسْقِطُكَ رَبُّكَ تَعَالَىٰ مِنْ عَيْنِهِ فَلَنْ تُفْلِحَ بَعْدَهَا أَبَدًا.

عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مُتَوَقِّيًا حَذِرًا، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي أَنْ يَحْذَرَ مَا يُسْخِطُ عَلَيْهِ رَبُّهُ وَمَوْلَاهُ، أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ سَيِّدُهُ وَمَالِكُهُ حَتَّىٰ لَا يَسْقُطَ مِنْ عَيْنِ اللهِ.

اللَّهُمَّ أَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَارْفَعْنَا وَلَا تَضَعْنَا؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ.

مِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ إِذَا كَمُلَ فِي الْقَلْبِ حَبَّبَ اللهُ لِصَاحِبِهِ الْإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قَلْبِهِ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، فَجَعَلَهُ مِنَ الرَّشِدِينَ، فَلَا يَرَىٰ فِي الْوُجُودِ غَايَةً سِوَىٰ إِرْضَاءِ مَوْلَاهُ وَهِيَ أَجَلُّ الْغَايَاتِ.

النَّبِيُّ ﷺ كَانَ ذِكْرُ رَبِّهِ دَيْدَنَهُ لِأَنَّهُ لَا يَغِيبُ ذِكْرُهُ عَنْ لِسَانِهِ وَلَا قَلْبِهِ، فَهُوَ ذَاكِرٌ دَائِمًا لِرَبِّهِ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ هَذِهِ عَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَكْثَرَ

(١) أخرجه الْبُخَارِيُّ (٦٤٧٨)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

مِنْ ذِكْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمَلُّ عَنْ ذِكْرِ مَنْ يُحِبُّ بِلِسَانِهِ مِنْ قَلْبِهِ، فَلَا يَغِيبُ ذِكْرُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ وَلَا عَقْلِهِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُحَبِّبَ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧- ٨].

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: فَتَحْبِيبُهُ سُبْحَانَهُ الْإِيمَانَ إِلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ إِلْقَاءُ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِهِمْ؛ فَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَاهُ.

وَأَمَّا تَحْبِيبُ الْعَبْدِ الشَّيْءَ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُوَ بِتَزْيِينِهِ، وَذِكْرِ أَوْصَافِهِ وَمَا يَدْعُو إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ كَمَا يَفْعَلُ الْبَائِعُ مَعَ الْمُشْتَرِي، فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَهُ السِّلْعَةَ وَيُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ بَدِيعِ أَوْصَافِهَا مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا إِلَىٰ مَحَبَّةِ الْمُشْتَرِي لَهَا، كَإِقْبَالِهِ عَلَيْهَا، فَأَخْبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ جَعَلَ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرَيْنِ: حُبَّهُ، وَحُسْنَهُ الدَّاعِي إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ.

وَأَلْقَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ كَرَاهَةَ ضِدِّهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مَحْضُ فَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ عَلَيْهِمْ حَيْثُ لَمْ يَكِلْهُمْ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ تَوَلَّىٰ سُبْحَانَهُ هَذَا التَّحْبِيبَ وَالتَّزْيِينَ وَتَكْرِيهَ ضِدِّهِ يَعْنِي لِلْإِيمَانِ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ هَذَا ضِدُّ الْإِيمَانِ؛ فَجَادَ عَلَيْهِمْ بِهِ فَضْلًا مِنْهُ وَنِعْمَةً، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَوَاقِعِ فَضْلِهِ، وَمَنْ يَصْلُحُ لَهُ، وَمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ، حَكِيمٌ بِجَعْلِهِ فِي مَوَاضِعِهِ.

مِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ وَثَمَراتِهِ وَنَتَائِجِهِ أَنْ يُخَفِّفَ عَنِ الْعَبْدِ الْمَكَارِهَ، وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِ الْآلَامَ، وَإِنَّمَا هِيَ خَطْفَةُ بَرْقٍ خَافِقَةٌ حَتَّىٰ يَضْرِبَ الْمَوْتُ ضَرْبَتَهُ فَيَصِيرُ مَا لِلسَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ، وَمَا لِلْأَرْضِ لِلْأَرْضِ، وَيَحْدُثُ اللِّقَاءُ الْمَنْشُودُ، وَحِينَئِذٍ تَزُولُ جَمِيعُ الْآلَامُ، وَيَضْمَحِلُّ الْهَمُّ وَيَنْتَهِي الْغَمُّ.

فَبِحَسَبِ تَكْمِيلِ الْعَبْدِ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ وَبِحَسَبِهِ يَكُونُ تَلَقِّيهِ لِلْمَكَارِهِ وَالْآلَامِ بِقَلْبٍ مُنْشَرِحٍ، وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وَتَسْلِيمٍ وَرِضًا لِأَقْدَارِ اللهِ الْمُؤْلِمَةِ، كَمَا قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَقَدْ تَمَشَّتِ الْأَكِلَةُ فِي رِجْلِهِ، وَقَرَّرَ الْأَطِبَّاءُ حَسْمَهَا، فَلَمَّا وُضِعَتْ بَعْدَ الْبَتْرِ فِي الزَّيْتِ الْمَغْلِيِّ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَأُغْشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ نَظَرَ إِلَىٰ مَا تَبَقَّىٰ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَىٰ مَا ذَهَبَ.

فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ مَعَ رَبِّهِ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ حَقٍّ، وَإِنَّمَا يُؤْتِيهِ اللهُ مَا يُؤْتِيهِ إِكْرَامًا مِنْهُ وَتَفَضُّلًا وَمِنَّةً عَلَيْهِ.

فَلَمَّا أَفَاقَ نَظَرَ إِلَىٰ مَا تَبَقَّىٰ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَىٰ مَا فَقَدَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ قَدِ ابْتَلَيْتَ فِي عُضْوٍ فَقَدْ عَافَيْتَ فِي أَعْضَاءَ.

فَانْظُرْ إِلَىٰ جَلَالِ التَّوْحِيدِ يَتَأَلَّقُ مُتَوَهِّجًا فِي قَلْبِ هَذَا الْعَبْدِ مِنْ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، يَنْظُرُ إِلَىٰ فِعْلِ اللهِ بِهِ فَلَا يُعَقِّبْ عَلَيْهِ، وَيَنْظُرُ فِي الْحِكْمَةِ الْكَامِنَةِ وَالْبَادِيَةِ فِي أَمْرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فَلَا يَعْتَرِضُ عَلَىٰ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ رَبِّهِ، وَلَا عَلَىٰ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ خَالِقِهِ تَعَلَّقَ بِهِ.

مِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ يُحَرِّرُ الْعَبْدَ مِنْ رِقِّ الْمَخْلُوقِينَ، وَيُحَرِّرُ الْعَبْدَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ وَرَجَائِهِمْ، وَالْعَمَلُ لِأَجْلِهِمْ؛ فَهَذَا هُوَ الْعِزُّ الْحَقِيقِيُّ وَالشَّرَفُ الْعَالِي.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَجِدْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ فَضْلًا وَإِنَّمَا الْفَضْلُ لِلَّهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَرَىٰ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ يَدًا، وَإِنَّمَا الْيَدُ الْعُلْيَا بِالْعَطَاءِ الْكَبِيرِ لِرَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، فَيَعْلَمُ أَنَّ الْإِكْرَامَ إِنَّمَا يَتَأَتَّىٰ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِ ذِي الْفَوَاضِلِ وَذِي الْإِعْطَاءِ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ قَدْ حَازَ الْعِزَّ الْحَقِيقِيَّ وَالشَّرَفَ الْعَالِيَ، حِينَئِذٍ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ عَلَىٰ قَلْبِكَ مِنْ سُلْطَانٍ يَتَحَرَّرُ الْقَلْبُ مِنْ سُلْطَانِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا يَصِيرُ فِي رِقِّ الْعَبِيدِ، لَا فِي رَجَائِهِمْ، وَلَا فِي خَوْفِهِمْ، وَلَا فِي تَوَقُّعِ الْأَذَىٰ يَتَأَذَّىٰ مِنْ نَاحِيَتِهِمْ، لِأَنَّ الْفَعَّالَ لِمَا يُرِيدُ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ، يَكُونُ الْعَبْدُ مَعَ ذَلِكَ مُتَأَلِّهًا مُتَعَبِّدًا لِرَبِّهِ لَا يَرْجُو سِوَاهُ وَلَا يَخْشَىٰ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا يُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ لَا يَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْهِ، بِذَلِكَ يَتِمُّ الْفَلَاحُ وَيَتَحَقَّقُ النَّجَاحُ.

فَإِذَا لَمْ يَتَحَرَّرِ الْقَلْبُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَاشَ يَرْسُفُ فِي أَغْلَالِ الْمَذَلَّةِ بِكُلِّ وَضِيعٍ فِي أَرْضِ اللهِ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَصِيرُ عَبْدًا لِلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

أَمَّا الَّذِي يَتَحَرَّرُ مِنْ كُلِّ قُيُودِ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَنْطَلِقُ فِي آفَاقِ الْحُرِّيَّةِ الْحَقِيقَةِ عَبْدًا ذَلِيلًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، عَزِيزًا بِعُبُودِيَّتِهِ لِرَبِّهِ.

وَالْعِزَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُسْتَمَدُّ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فَالْمُؤْمِنُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا فِي كُلِّ صَلَاةٍ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ فِي قَلْبِهِ وَضَمِيرِهِ، اللهُ أَكْبَرُ فِي إِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ كُلِّ أَحَدٍ، فَالْمُشْرِكُ لَا يَعْرِفُ هَذِهِ الْعِزَّةَ وَلَا يَتَذَوَّقُهَا لِأَنَّهُ بِإِشْرَاكِهِ بِرَبِّهِ تَعَالَىٰ يُعَبِّدُ نَفْسَهُ لِغَيْرِ اللهِ، وَهِيَ عُبُودِيَّةٌ ذَلِيلَةٌ، لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لِلَّهِ ﷻ.

الشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَىٰ مَهَانَةٌ لِكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ وَحَطٌّ لِقَدْرِهِ وَمَنْزِلَتِهِ.

وَاللهُ ﷻ فَطَرَ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ بِالتَّوْحِيدِ، وَأَخْبَرَ ﷻ أَنَّ الْإِنْسَانَ حِينَ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ بِالتَّوْحِيدِ فَإِنَّ نَفْسَهُ تَكُونُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، لِأَنَّهَا تَتَّجِهُ كُلُّهَا وِجْهَةً وَاحِدَةً فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣]، وَتِلْكَ حَصِيلَةُ التَّوْحِيدِ تَجْمَعُ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ فِي وِحْدَةٍ وَاحِدَةٍ وَاتِّجَاهٍ وَاحِدٍ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فَشَبَّهَ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدَ فِي عُلُوِّهِ وَسَعَتِهِ وَسُمُوِّهِ وَشَرَفِهِ بِالسَّمَاءِ الَّتِي هِيَ مَصْعَدُهُ وَمَهْبَطُهُ، فَمِنْهَا هَبَطَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَإِلَيْهَا يَصْعَدُ مِنْهَا.

وَشَبَّهَ تَارِكَ الْإِيمَانَ وَالتَّوْحِيدِ بِالسَّاقِطِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ «أَسْفَلَ سَافِلِينَ» مِنْ حَيْثُ الضِّيقُ الشَّدِيدُ وَالْآلَامُ الْمُتَرَاكِمَةُ، كَذَلِكَ بِالطَّيْرِ تَخْطَفُ أَعْضَاءَهُ وَتُمَزِّقُهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ بِالشَّيَاطِينِ الَّتِي يُرْسِلُهَا اللهُ تَعَالَىٰ تَأُزُّهُ، وَتُزْعِجُهُ، وَتُقْلِقُهُ إِلَىٰ مَظَانِّ هَلَاكِهِ، وَكَذَلِكَ الرِّيحُ تَهْوِي بِهِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ، وَهَوَاهُ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَىٰ إِلْقَاءِ نَفْسِهِ فِي أَسْفَلِ مَكَانٍ وَأَبْعَدِهِ عَنِ السَّمَاءِ.

مِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ الَّتِي لَا يَلْحَقُهُ فِيهَا شَيْءٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ فِي الْقَلْبِ فَتَحَقَّقَ تَحَقُّقًا كَامِلًا بِالْإِخْلَاصِ التَّامِّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ يَصِيرُ كَثِيرًا، وَتُضَاعَفُ الْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ بِغَيْرِ حَصْرٍ وَلَا حِسَابٍ، فَتَرْجُحُ كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ بِحَيْثُ لَا تُقَابِلُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَعُمَّارُهَا مِنْ جَمِيعِ خَلْقِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ.

إِنَّهُ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ بِطَاقَةٌ؛ فَإِذَا بِكِفَّةٍ فِيهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرَ، وَهِيَ مَمْلُوءَةٌ بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا وَالْآثَامِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْبِطَاقَةُ طَاشَتْ كِفَّةُ السِّجِلَّاتِ عَالِيَةً وَخَفَّتْ كَأَلَّا شَيْءَ فِيهَا، فَرَجَحَتْ كِفَّةُ الْبِطَاقَةِ، وَإِذَا فِي الْبِطَاقَةِ مَكْتُوبٌ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١).

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: فَالْأَعْمَالُ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا

(١) أخرجه التِّرْمِذِيُّ (٢٦٣٩)، وَابْنُ مَاجَه (٤٣٠٠)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ» (١٣٥).

تَتَفَاضَلُ بِتفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ فتكُونُ صُورَةُ الْعَمَلِ وَاحِدَةً وَبَيْنَهُمَا مِنَ التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

قَالَ: تَأَمَّلْ حَدِيثَ الْبِطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدَّ الْبَصَرِ، فَتَثْقُلُ الْبِطَاقَةُ، فَتَطِيشُ السِّجِلَّاتُ فَلَا يُعَذَّبُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِّدٍ لَهُ هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ، وَإِنَّمَا نَجَا صَاحِبُ الْبِطَاقَةِ لِكَمَالِ إِخْلَاصِهِ فِي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَكَمْ مِمَّنْ يَقُولُهَا لَا يَبْلُغُ هَذَا الْمَبْلَغَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ الْكَامِلِ مِثْلُهُ، وَلَا قَرِيبَ مِمَّا قَامَ بِقَلْبِ هَذَا الْعَبْدِ، «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَا يُوَازِيهَا شَيْءٌ وَلَا يَزِنُهَا شَيْءٌ، وَإِنَّمَا تَرْجُحُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَوْ كَانَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ حَلْقَةً لَقَصَمَتْهُنَّ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ(١).

وَمِنْ فَضَائِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّ اللهَ تَكَفَّلَ لِأَهْلِهِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعِزِّ وَالشَّرَفِ، وَحُصُولِ الْهِدَايَةِ، وَالتَّيْسِيرِ لِلْيُسْرَىٰ، وَإِصْلَاحِ الْأَحْوَالِ، وَالتَّسْدِيدِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، فَتَجِدُ الْمُوَحِّدَ مُسَدَّدًا فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، لَا تَتَأَتَّىٰ مِنْهُ دَنِيَّةٌ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ لَفْظٌ يَسُوءُ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ الْمِنْهَاجِ يَسْعَىٰ حَثِيثًا إِلَىٰ الْغَايَةِ مُسْتَبْشِرًا بِرِضْوَانِ اللهِ.

---

(١) رَوَاهُ البخاري معلقا في «الأدب المفرد» (٢٨١، ٢٨٢)، والْبَزَّارُ كَمَا فِي «كَشْفِ الْأَسْتَارِ» (٤/ ٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (ص٢٠٦).

وَمِنْ أَعْظَمِ فَضَائِلِ وَفَوَاضِلِ التَّوْحِيدِ أَنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الْمُوَحِّدِينَ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ، وَالِاطْمِئْنَانِ بِذِكْرِهِ. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةٌ مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا فَلَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ الْآخِرَةِ؛ قِيلَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: هِيَ جَنَّةُ الْأُنْسِ بِاللهِ، وَالِانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَإِلْقَاءِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ عَلَىٰ عَتَبَاتِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

هَذِهِ الْجَنَّةُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا فِي الدُّنْيَا، فَلَنْ يَنْعَمَ بِجَنَّةِ الْخُلْدِ فِي الْآخِرَةِ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُحَقِّقَ لَنَا التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ فِي قُلُوبِنَا وَأَرْوَاحِنَا، وَأَلْسِنَتِنَا وَجَوَارِحِنَا، وَحَيَاتِنَا، وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُحْيِيَنَا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَأَنْ يُمِيتَنَا عَلَيْهِ، وَأَنْ يَبْعَثَنَا فِي الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ أَهْلِهِ تَحْتَ لِوَاءِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فَخَتَمَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ هَذَا الْمَجْمُوعَ أَعْنِي الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةَ فَأَتْبَعَهَا بِهَذِهِ الْخَاتِمَةِ قَالَ: فَهَذَا آخِرُ مَا قَصَدْتُ مِنْ بَيَانِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي جَمَعَتْ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ، وَتَضَمَّنَتْ مَا لَا يُحْصَىٰ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ فِي الْأُصُولِ، وَالْفُرُوعِ، وَالْآدَابِ، وَسَائِرِ وُجُوهِ الْأَحْكَامِ.

وَهَا أَنَا أَذْكُرُ بَابًا مُخْتَصَرًا جِدًّا فِي ضَبْطِ أَلْفَاظِهَا مُرَتَّبَةً لِئَلَّا يَغْلَطَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَحَدٌ، وَيَسْتَغْنِي بِهَا حَافِظُهَا عَنْ مُرَاجَعَةِ غَيْرِهِ فِي ضَبْطِهَا، ثُمَّ أَشْرَعُ فِي

شَرْحِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ، وَأَرْجُو مِنْ فَضْلِ اللهِ أَنْ يُوَفِّقَنِي فِيهِ لِبَيَانِ مُهِمَّاتٍ مِنَ اللَّطَائِفِ، وَجُمَلٍ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَعَارِفِ، لَا يَسْتَغْنِي مُسْلِمٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مِثْلِهَا، وَيَظْهَرُ لِمُطَالِعِهَا جَزَالَةُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَعِظَمُ فَضْلِهَا، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ النَّفَائِسِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا، وَالْمُهِمَّاتِ الَّتِي وَصَفْتُهَا، وَيَعْلَمُ بِهَا الْحِكْمَةَ فِي اخْتِيَارِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْأَرْبَعِينَ، وَأَنَّهَا حَقِيقَةٌ بِذَلِكَ عِنْدَ النَّاظِرِينَ.

وَإِنَّمَا أَفْرَدْتُهَا عَنْ هَذَا الْجُزْءِ؛ لِيَسْهُلَ حِفْظُ هَذَا الْجُزْءِ بِانْفِرَادِهِ، ثُمَّ مَنْ أَرَادَ ضَمَّ الشَّرْحِ إِلَيْهِ فَلْيَفْعَلْ، وَلِلَّهِ عَلَيْهِ الْمِنَّةُ بِذَلِكَ؛ إِذْ يَقِفُ عَلَىٰ نَفَائِسِ اللَّطَائِفِ الْمُسْتَنْبَطَاتِ مِنْ كَلَامِ مَنْ قَالَ اللهُ فِي حَقِّهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣- ٤]، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَبَاطِنًا وَظَاهِرًا عَلَىٰ نِعَمِهِ.

فَخَتَمَ بِذَلِكَ مَا جَمَعَهُ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي قَالَ إِنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ وَأُصُولِ الْأَحْكَامِ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ -رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ- قَدْ مَاتَ شَابًّا لَهُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ عَامًا بِالْهِجْرِيِّ، يَعْنِي مَا يُسَاوِي ثَلَاثِينَ عَامًا بِالتَّارِيخِ النَّصْرَانِيِّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ صَارَ إِمَامًا، وَقَدْ وَقَعَتْ مِنْهُ هَنَاتٌ؛ نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَأَنْ يَرْحَمَهُ وَأَنْ يُجْزِلَ لَهُ الْمَثُوبَةَ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَبَعْدُ:

فَهَذَا مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنْ قِرَاءَةٍ وَشَرْحٍ، وَبَيَانٍ وَتَعْلِيقٍ عَلَىٰ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ لِلْإِمَامِ مُحْيِي الدِّينِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَىٰ بْنِ شَرَفٍ النَّوَوِيِّ، الْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ

سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَسِتِّمِئَةٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَغَفَرَ لَهُ.

وَكَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ تَعْلِيقَاتِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ الْأَرْبَعِينَ، وَمِنْ شَرْحِ الْإِمَامِ ابْنِ رَجَبٍ لِلْأَرْبَعِينَ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ»، وَبَعْضِ مُخْتَصَرَاتِ هَذَا السِّفْرِ الْعَظِيمِ وَتَهْذِيبِهِ، مَعَ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنْ فَوَائِدِ الْأَرْبَعِينَ مِنَ «الدَّرَارِي السَّنِيَّةِ» وَغَيْرِهَا.

وَكَانَ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَحَوْلِهِ تَعَالَىٰ وَطَوْلِهِ، وَنِعْمَتِهِ وَعَطَائِهِ تَعَالَىٰ وَجُودِهِ وَمِنَّتِهِ فِي مَجَالِسَ أَوَّلُهَا: فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ اللهِ تَعَالَىٰ الْحَرَامِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمُوَافِقِ لِلسَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِرَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ. وَآخِرُهَا: فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ اللهِ تَعَالَىٰ الْحَرَامِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمُوَافِقِ لِلثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ نُوفَمْبِرَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَلْفَيْنِ مِنَ التَّارِيخِ الصَّلِيبِيِّ.

وَذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْمَسْجِدِ الشَّرْقِيِّ بِـ«سُبْكِ الْأَحَدِ» مِنْ أَعْمَالِ مُحَافَظَةِ الْمُنُوفِيَّةِ بِمِصْرَ حَفِظَهَا اللهُ تَعَالَىٰ، وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمُشْرِكِينَ، وَمِنَ الْبِدْعَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ، وَمِنَ الْآفَاتِ كُلِّهَا بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ وَهُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا؛ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَتُبْ عَلَيْنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ أَبَوَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ، وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْآلِ وَالصَّحْبِ أَجْمَعِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com